مجلة المجمع العلمي

محاولة نقديّة
في تأصيل مصطلح عمود الشعر

الدكتور فائز طه عمر
كلية التربية – جامعة تكريت

الملخـــص :

يرمي هذا البحث الى إظهار استعمال مصطلح عمود الشعر وجدناه سابقا لاستعمال البحتري له في النص الشهير الذي نقله عنه الآمدي في كتاب الموازنة ، و يبدو أن هذا الاستعمال المقصود الذي ذكرناه في هذا البحث لا يعطي الدلالة المعروفة عنه التي تدلّ على طريقة العرب الموروثة في الشعر المستقاة من الشعر الجاهلي ، بل يفيد مرتكز الشعر وجوهره وعناصر صناعته الجيدة عامّة . مما يحقق استدراكا على سائر الدراسات النقدية التاريخية الدائرة حول عمود الشعر .

المقدمـــة :

أفرزت حقيقة الصراع الدائر بين قديم الشعر العربي وجديده ومناصريهما معركة نقدية كبيرة ، قوامُها التعصّب للشعر القديم ، وردّ الفعل المُتوقّع عليه ، الذي نتج عنه وضع المصطلحات الجديدة ، كمصطلح عمود الشعر ، والبديع ، وازدهار البحث في السرقات ، على نحو واسع وعميق ، ومحاولات على سبيل كشف عيوب الشعراء وأغاليطهم ، وغير ذلك ممّا أثرى النقد العربي ووسّع ميادينه وعمّقها ، غير أنّ الاستقرار

على تحديد أصول المصطلحات ومبتكريها بدا أمرا صعب المنال ، فلم يستطع الدرس النقدي أن يحدّد من هو واضع البديع ، مثلا ، فالجاحظ الذي نسب هذا المصطلح إلى رواة الشعر[1] لم يُسمّ هـذا الراوية الـذي يبدو أنه أحد اللغويين الرّوّاد ، غير أنّ أبا الفرج الأصفهاني نسب إلى أُناس، لم يسمّهم ، زعمهم أنّ مسلما بن الوليد (٢٠٨هـ) هو (أوّل من قال الشّعر المعروف بالبديع ، وهو لقّب هذا الجنس البديع و تبعه فيه جماعة . .)[2] ، ولعلّ الأصفهاني الذي ضعّف هذا القول وعبّر عنه بـ (زعموا) كان يعلم أنّ مثل هذه الدعاوى قد أبطلها ابن المعتز[3] ، من قبلُ . فالبديع فنون مُستعملة في أقدم النصوص العربيّة القديمة ، فضلا عن القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وسائر كلام العرب نثره وشعره ، وكانت تأتي في الكلام على نحو تلقائي وغير مقصود ، تلبية لحاجة تعبيريّة ونفسيّة إنسانيّة .

---

(١) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ) ؛ البيان و التبيين ، تحقيق ، عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ، ٥ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م ، ٣ / ٢٤٢ .

(٢) الأصفهاني ، أبو الفرج ، ٣٥٦ هـ ، الأغاني ، تحقيق ، الدكتور يوسف البقاعي ، و غريد الشيخ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ، ١٩ / ٢٧ .

(٣) ابن المعتز . أبو العباس ، عبدالله ، ٢٩٦هـ ، البديع ، تحقيق ، محمد عبد المنعم خفاجي ، مصطفى البابي الحلبي و أولاده ، القاهرة ، ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م ، ١٥ -- ١٦ .

وقد بات من الشائع والمُتداول ، في الأوساط المعنيّة بالنقد العربي القديم وما أُنتج فيه من دراسات ، أنّ عمود الشعر مصطلح أُطلق على طريقة العرب الموروثة عن الجاهليين في صناعة الشعر وشروطه وخصائصه المُتمثّلة بعدم القصد إلى استعمال البديع خاصة ، فهو يعبّر عن (طريقة العرب في نظم الشعر لا ما أحدثه المُولّدون والمتأخّرون)[٤] ، وأظنّ أنّ هذا يشمل بناء القصيدة بمطلعها الطللي والنسيبي ، ووصف الرحلة التي قادته إلى الممدوح ، ووصف الراحلة وما لاقته من تعب مضن من أجل الوصول إليه ، ثم الشروع بالمديح لهزّ الممدوح إلى مزيد من العطاء[٥] ، فهذه الأقسام تعبّر عن شيء من أسس عمود الشعر، في مفهومه العام ، وتقاليده وخصائصه البنائيّة ، على الرغم من أنّ هذه الأقسام لم يذكرها مُنظّرو هذا العمود .

إن رسوخ تقاليد الشعر العربي وتعلّق الذوق العام به ، حتّى حين ، كان بفعل عوامل كثيرة أشار إليها عدد من الدراسات [٦] ، وقد آل هذا

---

(٤) مطلوب ، الدكتور أحمد ، معجم النقد العربي القديم ، دار الشؤون الثقافيّة العامّة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٩م ، ٢/ ١٣٣ .

(٥) ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، ٢٧٦هـ ، الشعر و الشعراء ، تحقيق ، الدكتور مفيد قميحة ، و الأستاذ محمد أمين الضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م ، ٢٠ .

(٦) مندور ، الدكتور محمد ، النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، د.ت ، ٧١ ، ٧٤ ، كتابة ، الدكتور وحيد صبحي ، الخصومة بين الطائيين ، اتحاد الكُتّاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٧م ، ٨ ، عمر ، الدكتور فائز طه ، نقد الشعر لدى ابن المعتز ، دار الشؤون الثقافيّة العامة ، بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٩ م ، ١١٣ ، ١٢٦-١٢٧ .

الأمر إلى إعتماد الكثير من النقّاد القُدامى الشعر القديم معيارا يُعرض عليه الشعر المُحدث ، مما يُقال عن ابن المعتز[٧]، وابن طباطبا[٨]، والآمدي[٩]، والقاضي الجرجاني[١٠] ، وغيرهم ، ولاننسى هنا اللغويين رواة الشعر الروّاد الذين كان لهم الأثر الكبير في ترسيخ المعيار الزمني للشعر ، وهو يستند إلى قبول شعر القدماء ورفض غيره من شعر أنتجه المحدثون ، حتى بات القرب من شعر القدماء ومحاكاته ، أو البعد عنه هو المُعوّل عليه ، كما مرّ بنا ، في قبول الشعر أو رفضه[١١]، و لا نغفل عن أثرهم في تنمية أذواق أبناء الخلفاء الذين تعهّدهم بعض هؤلاء اللغويين بالتأديب

---

(٧) السامرائي ، الدكتور يونس ، من فصول ابن المعتز و رسائله ، جمع و تحقيق ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٢م ، ٥٩ ، ٧٨ .

(٨) ابن طباطبا ، محمد بن أحمد العلوي ٣٢٢هـ ، عيار الشعر ، تحقيق ، الدكتور طه الحاجري ، الدكتور محمد زغلول سلّام ، المكتبة التجاريّة الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، ٤، ٧ .

(٩) الآمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر ٣٧٠هـ ، الموازنة بين شعر أبي تمّام والبُحتري ، تحقيق ، السيد صقر ، دار المعارف بمصر ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، ١/ ٤٢٣.

(١٠) القاضي ، أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ٣٩٢هـ ، الوساطة بين المُتنبي و خصومه ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، و علي محمد البجاوي ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط٤ ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م ، ٣٣- ٣٤ .

(١١) محمد ، سنيّة أحمد ، النقد عند اللغويين في القرن الثاني ، دار الرسالة ، بغداد ، ١٩٧٧م ، ٦٨ – ٧٩ ، سلّوم ، الدكتور داود ، النقد العربي القديم بين الاستقراء والتأليف ، مكتبة الأندلس ، بغداد ، ط٢ ، ١٩٧٠م ، ٨٧- ٩١ .

والتعليم على نحو عمّق مكانة هذا القديم الشعري[١٢]، ونشير ، إلى أنّ للغويين ، المؤدبين خاصة ، أثرا في حصول شاعر ما على جائزة من ممدوحه ، أو عدمه [١٣]، كلّ هذا وغيره جرى في أجواء الصراع بين أنصار الشعر القديم ، وأنصار الشعر الحديث ، وفي ظلّ هذه الأجواء (كان النقّاد يحدّدون خصائص الشعر القديم ، ويوضحون سمات الشعر الجديد .) [١٤]، بل إنّ الكثير من الشعراء المُجدّدين كانوا يحاولون إرجاع الجديد برمّته ، أو الحسن (المقبول منه إلى أصول قديمة .) [١٥]، على أنّ مصطلحا معبّرا عن خصائص هذا القديم وتقاليده المُتوارثة لم يظهر ، في حينه ، حتى ظهور كتاب الموازنة للآمدي ، ممّا كان مُتداولا بين الدارسين ، ذلك أنّ هذا الشعر كان هو المُهيمن ، بخصائصه المعروفة ، وهو معبّر عن هذه الخصائص ومعروف بها ، ولعلّ هذا هو ما كان يُشعر المعنيين بالشعر ونقده بعدم الحاجة إلى الإصطلاح عليه ولتحديد خصائصه وحدوده ، فطبائع الأشياء وقوانينها فرضت عليهم ، على نحو تلقائي ، أن يصطلحوا ، أوّلا ، على الجديد اللافت للإنتباه الذي لم تتضح

---

[١٢] ضيف ، الدكتور شوقي ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف بمصر ، ط٦ ، ١٩٧٦ م ، ١٣٩ ، قصّاب ، الدكتور وليد ، قضيّة عمود الشعر في النقد العربي القديم ، ظهورها و تطوّرها ، المكتبة الحديثة ، العين ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ٣٨.

[١٣] ضيف ، السابق ، ٣٩ – ٤٠ ، كبّابة ، سابق ، ٨-٩ .

[١٤] مطلوب ، الدكتور أحمد ، دراسات بلاغية و نقدية ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ٣٩٨ ، قصّاب ، سابق ، ٨٣ .

[١٥] الأعرجي ، الدكتور محمد حسين ، الصراع بين القديم و الجديد في الشعر العربي، المركز العربي للثقافة و العلوم ، بيروت ، د.ت ، ١٢٨ ، كبّابة ، سابق ، ٢٢ .

حدوده أو خصائصه ، على نحو قويّ ، بعدُ ، فالجديد الشعري هذا نبع من حياة جديدة ، ومن شعراء عاشوا ظروفا أخرى مؤثّرة في صيرورتهم الشعرية وتطوّرها ، ليعبّروا به عن هذه الحياة وتغيّر معالمها ، وهي اشياء مختلفة كل الإختلاف عمّا ألفه الشاعر الجاهلي ، ومن تلاه من شعراء العصور القريبة اللاحقة ، فالحياة أخذت تضرب لها قيما جديدة ، ووجه المجتمع راح يأخـذ ألوانا غـير مـعهودة ، ولغتنا العربيّة بدأت تتكيّف مع تغيّر الأحوال ، وتعدّد الثقافات واختلاف مستويات التعبير اللغوي حتّى ظهور جيل جديد ، من الشعراء وغيرهم عُرفوا بالمُولّدين وهم الذين لم تكن ثقافتهم ولا بيئتهم عربيّة محضة[١٦]، فنشأتهم كانت في ظروف تلاقح أو تفاعل الثقافة العربيّة الإسلاميّة بثقافات أُخرى وافدة عن طريق الترجمة ، أو عن طريق من حملها ، لسانا ومعرفة ، فانتج هؤلاء المُولّدون قصائد وأشعارا تعبّر عن نمط شعريّ جديد ، يختلف ، بطابعه ، عن الشعر العربي المُتوارث الذي كان يُستعمل فيه الفنّ البديعي على نحو تلقائي استجابة للمعاني ولمقتضيات الأحوال ، وليس لغايات فنّية محضة ، على أنّ المُولّدين من الشعراء ، كبشار بن برد ، وأبي نواس ، والعتّابي ، ومسلم ، ثمّ أبي تمّام ، أخذوا يقصدون البديع قصدا بعد أن لحظوا أثره في النصّ الشعري بجعله أكثر جمالا وفنّا وأثرا ، ممّا بيّنه ابن المعتز بقوله : (ولكنّه كثُر في أشعارهم ، فعرُف في زمانهم ، حتى سمّي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه .) [١٧]، فكان مُصطلح البديع هنا قد اكتسب دلالة المذهب الشعري الجديد ، بعد أن كان دالّا على الاستعمال الفنّي

---

[١٦] مطلوب ، معجم ، سابق ، ٢ / ٣٨٣ – ٤٨٥ .

[١٧] ابن المعتز ، البديع ، سابق ، ١٦ .

المؤثّر الجميل المُتمثّل بالإستعارة ، ومن ثم فنون أخرى ، لكون أبرز ما كان يميّز هذا المذهب الشعري المُسمّى بالبديع هو كثرة فنون البلاغة أي البديع فيه ، كما صرّح بهذا ابنُ المعتز في قوله السابق ، وقد ظهر هذا وعُرف قبل الإصطلاح على الشعر المُحافظ على طريقة العرب المعروفة المُتوارثة الذي كان الأكثر سعة وتداولا حتى زمن ظهور مصطلح البديع المُعبّر عن الشعر الجديد الذي كان مايزال ضيّقا ، ولا نعثر قبل قول ابن المعتز السابق عن قول يُصرّحُ فيه أن كلمة بديع أُطلقت على مجموعة شعراء مثّلوا اتجاها أو مذهبا شعريا جديدا قوامُه القصد إلى استعمال البديع والإكثار منه في أشعارهم ، فابن المعتز تمكّن من تحديد معالم هذا المذهب الجديد وأبرز سماته .

ومع تقادم الزمن ، وتطوّر الحياة أخذ مذهب البديع هذا يتّسع ، ولاسيّما أنّ شعراء كبارا اتخذوه طريقة لهم في صناعة الشعر ، وربّما أخذت مساحته تربو على مساحة الشعر المنتمي إلى طريقة العرب المُتوارثة ، ولعلّ المعنيين بالشعر أدركوا ، حينذاك ، أهميّة الإصطلاح على الطريقة العربيّة التقليدية في الشعر ، بل ضرورة ذلك ليتسنّى لهم ، من خلال الإصطلاح ، أن يحافظوا على معالم هذه الطريقة و حدودها الفنّية وسماتها ، فبرز تعبير عمود الشعر إستعمالا إصطلاحيّا دالّا على هذه الطريقة المُنبثقة من خصائص الشعر الجاهلي خاصّة التي (تقوم على الإعتدال ، وعدم المُغالاة في الصنعة)[18]، وتداول المعنيّون بالشعر

---

[18] سلّام ، الدكتور محمد زغلول ، تاريخ النقد العربي من القرن الخامس الى العاشر الهجري ، دار المعارف ، بمصر ، د . ت ، ٢/ ١٠٠ .

ونقده أنّ أوّل من دار على لسانه هذا المصطلح هو الشاعر الكبير أبو عُبادة البُحتري (٢٨٤هـ) ، في قول له نقله الآمدي وحده في كتابه الموازنة ، وهو : (أبو تمّام أغوص على المعاني منّي ، وأنا أقوم بعمود الشعر منه) [١٩] ، وكان انفراد الآمدي برواية هذا القول ونسبته للبحتري مدعاة إلى ظنّ بعض مؤرّخي النقد العربي القديم بأنّ الآمدي هو واضع هذا القول وما يتضمّنه من مصطلح عمود الشعر[٢٠].

وقد تولّيتُ سنوات ، تدريس النقد العربي القديم في مرحلة الدراسات الأوّليّة ، والدراسات العليا ، في كلّية الآداب – جامعة بغداد ، وفي غيرها ، وكنتُ كلّما وقفتُ على ما نسبه الآمدي للبحتري من قول ، ذكرناه ، فيه ذكر عمود الشعر مصطلحا دالّا ، أُعلنُ ظنّي أنّ هذا المصطلح بدا ، في استعمال البحتري له في هذا النصّ ، مصطلحا مُتداولا قبل استعمال البُحتُري له ، إن صحّ أنّه هو صاحبه ، ذلك أنّ الآمدي قد انفرد بروايته ، وقد كنتُ أقصد أنّ البحتري لم يكن هو واضع هذا المصطلح (عمود الشعر) ، بل تحدّث عنه ، أو جاء به في سياق التعبير عن الإجادة في صناعة الشعر ، أو إحكامها ، ولعلّه تعبير عن اقتراب الشعر المُحدث من الشعر الجاهلي ، خاصّة ، في خصائصه ، ولاسيّما أنّ الآمديّ نفسه وصفه بالمعروف في قوله عن البُحتري : (ما

---

[١٩] الآمدي ، سابق ، ١/ ١٢ .

[٢٠] عباس ، الدكتور إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، نقد الشعر ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، عمّان ، ١٩٨٦ م : ١٥٩ ، و قصّاب ، سابق ، ١٤٠.

فارق عمود الشعر المعروف .) [٢١] ، و قد أوحى إنفراد الآمدي بنسبة استعمال عمود الشعر إلى البحتري لبعض الباحثين بآراء تنسب القول بعمود الشعر الى الآمدي ، فهذا الدكتور إحسان عباس يقول : (فإنّ هذا التعبير يواجهنا هنا لأول مرّة) [٢٢]، يقصد تعبير عمود الشعر ، و يرى ، أيضا أنّ أنّ إيثار الآمدي طريقة البحتري وميله إليها هو ما دفعه إلى عدّها عمود الشعر ونسبتها للأوائل ، في قوله:(وليس من شكّ في أنّ الآمدي كان يؤثر طريقة البحتري ويميل إليها ، ومن أجل هذا جعلها عمود الشعر ونسبها إلى الأوائل ، وصرّح بأنه من هذا الفريق دون موازبة) [٢٣] ، ويشير كلام الدكتور إحسان عباس ، على نحو غير مباشر ، إلى أنّ الآمدي هو الذي وضع ، لطريقة البحتري التي تمثل طريقة القدماء حسب رأيه ، مصطلح عمود الشعر ، وتابع أحد الباحثين قول الدكتور عباس ، وأكّد رأيه بقوله : (الآمدي هو أوّل من أتى بهذا المصطلح ليكون عنوانا لطريقة العرب الشعرية ، ومعيار الخصومة بين القدماء والمحدثين) [٢٤]، وصرّح الدكتور وليد قصّاب ، أيضا ، بأنّه لم يجد أحدا قبل الآمدي قد تحدّث عن مصطلح عمود الشعر ، بقوله : (لا نجد أحدا تحدّث عنه قبل الآمدي تحت هذا الاسم) [٢٥]، بل هو صرّح ، بعد هذا ، بأنّ الآمدي هو

---

[٢١] الآمدي ، سابق ، ٤ .

[٢٢] عباس ، السابق ، ١٥٩ .

[٢٣] نفسه ،١٦٢.

[٢٤] كتابة ، سابق ، ٦٢ .

[٢٥] قصّاب ، سابق ، ١٤٠ .

الذي وضع هذا المصطلح ، بقوله : (إنّنا نظنّ ظنّا أنّ الآمدي قد وضع هذا المصطلح النقدي وأقام عليه نظريّة واسعة ممتدّة الجنبات ، وجعلها شيئا معروفا بين الناس) [٢٦]، وهو يدّعي أنّ وصف الآمدي عمود الشعر بالمعروف ، ممّا مرّ بنا ، غايتُه إيهام النّاس أنّ هذا المصطلح معروف ليحقق غرضه في رواجه ، و قبول ما رتّب عليه من نظريّة ، وكأنّ الآمدي ، على وفق هذا القول ، منقطع عن مجمل حركة الشعر العربي وخصائصه المُتوارثة وما طرأ عليها من تغيّر أو تطوّر ، ليصنع لنفسه كيانا نقديّا خاصّا به يسوّغ به ما يراه ، ولا يخفى أنّ قصّاب اطمأنّ إلى ما قاله بإرتكازه على مقولة الدكتور إحسان عباس التي أوردناها سابقا ليبني عليها ما قاله ، على نحو نتحفّظ منه ، فهو يُلغي جهود السابقين من النقّاد الذين أسهموا في إنضاج القول في عمود الشعر و شروطه و أبوابه بآرائهم و اجتهاداتهم .

ومن المناسب ذكر أنّ الدكتور أحمد مطلوب ، والدكتور محمد زغلول سلّام لم يُصرّحا بأكثر من مفهوم ظاهر لكلام الآمدي وما نقله عن البحتري من كلام اقتبسناه آنفا ، فيه ذكر عمود الشعر. [٢٧]

ولعلّ وصف الآمدي عمود الشعر بالمعروف ممّا أوردناه يدلّ على أحد احتمالين ، فقد يُقصد به أنّ هذا العمود معبّر عن تقاليد مُتّبعة ، وخصائص متواترة ، يعرفها الناس نتيجة معرفتهم بخصائص الشعر الجاهلي وما جرى مجراه التي هي أساس أبواب عمود الشعر ، أو قد

---

[٢٦] نفسه ، ١٤١ .

[٢٧] مطلوب ، سابق ، ٤٠٠ ، معجم النقد العربي القديم ، سابق ، ٢/ ١٣٣- ١٣٦، سلّام ، سابق ، ١/ ١٠٢ ، ١٧٨ .

يكون القصد من كلمة معروف أنّ عمود الشعر استعمال دائر يعرفه الناس ويؤدّون به معاني مقصودة ، على هذا لا يكون الآمدي ولا البحتري هو من وضع هذا المصطلح ، ولعلّ هذا الأمر يؤكّده ما وجدناه من استعمال مبكّر لعمود الشعر ، قبل البُحتري و الآمدي ، جاء على لسان شخص من عامّة الناس هو ابن عمّ الشاعر مسلم بن الوليد الذي كان قد تهاجى مع شاعر معاصر له فغلبه هذا الشاعر ، في الهجاء ، وهذا الشاعر هو الحكم بن محمد بن قنبر المازني ، نحو (٢٠٠هـ) ، ويبدو أنّ ابن عمّ الشاعر مسلم هذا أراد أن يُطيّب نفس مسلم و خاطره ، مقرّا له بمكانته الشعريّة التي يعترف بها الجميع ، على الرغم من غلبة الشاعر ابن قنبر له في الهجاء ، فذكر له أنّ الناس جميعا يُقرّون له بتفوقه في عمود الشعر ، أي في جوهره ومرتكزاته الفنيّة ، ممّا رواه أبو الفرج الأصفهاني بقوله : (لمّا تهاجى مسلم بنُ الوليد و ابن قنبر ، أمسك عنه مسلم بعد أن بسط عليه لسانه . فجاء مسلما ابنُ عمّ له فقال : أيّها الرجل ، إنّك عند الناس فوق هذا الرجل في عمود الشعر ، وقد بعثتَ عليه لسانك ثمّ أمسكتَ عنه ؛ فإمّا أن قاذعته ، وإمّا أن سالمتَه . .) [٢٨]، ويبدو ، من هذا الخبر الذي يتضمّن استعمال عمود الشعر ، أنّ عمود الشعر ، في أوّل أمره ، لم يكن دالا على طريقة القدماء في صناعة الشعر ، ولعلّه دلّ على استيفاء الشعر شروطه الفنيّة التي تجعله قويّا مؤثّرا ، ممّا هو حال شعر مسلم المعروف بجودته ، وبمنحاه البديعي ، فهو أوّل من وسّع البديع[٢٩] ، وهذا يدلّ على عدم حمل هذا الاستعمال ، أي عمود الشعر ، أية دلالة إصطلاحيّة على خصائص الموروث الشعري ، ممّا عبّر عنه

---

[٢٨] الأصفهاني ، سابق ، ١٤ / ١١٣ ، و نفسه ، ١٩ / ٤٩ – ٥٠ .

[٢٩] ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، تحقيق ، عبد الستار أحمد فرّاج ، دار المعارف بمصر ، ط٤ ،١٩٨١م ، ٢٣٥ .

الآمدي ، ومن تلاه من النقّاد الذين عُنوا به ، فعمود الشعر في قول ابن عم مسلم له مُستمدّ من استعمال العرب لكلمة عمود التي تعني الخشبة التي يقوم عليها البيت[٣٠] ، وقد اُستعملت هذه الكلمة (عمود) مُضافة إلى الخطابة في قول للشاعر الجاهلي أبي دؤاد بن حريز الإيادي ، هو : (رأس الخطابة الطبعُ ، وعمودُها الدّربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحلّيُها الإعراب ، و بهاؤها تخيّرُ الألفاظ . .) [٣١] ، فمُرتكز الخطابة ، في هذا القول ، هو الدّربة ، أي الاستمرار على قول الخطب و تدريب اللسان عليها ، في مواجهة الناس شفاها .

وتحدّث اللغوي أبو زيد الأنصاري (٢١٥هـ) ، بعد ذلك ، عن مقدرة الشاعرة الخنساء في غرض الرثاء وتفوّقها فيه ، في موازنة له عقدها بينها وبين الشاعرة ليلى الأخيليّة التي قال عنها إنّها (أغزرُ بحرا ، وأكثر تصرّفا . .) [٣٢] أي أنّها متمكّنة من القول في الأغراض الشعرية المختلفة ، أما الخنساء فهي (أذهبُ في عمود الرّثاء) ، ممّا قاله أبو زيد في الموضع نفسه ، فالخنساء هي الأقدر على القول في غرض الرثاء ، فقد امتلكت أساس القول فيه وهو ، كما يبدو لنا ، وجود محفّز لها على القول فيه ، فقد فقدت أخويها صخرا ومعاوية وفاضت دموعُها

---

(٣٠) ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ٧١١هـ ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، ١٠/ ٢٧٥ .

(٣١) الجاحظ ، سابق ، ١ / ٤٤ .

(٣٢) الحصري القيرواني ، أبو اسحاق ابراهيم بن علي ، تحقيق ، علي محمد البجاوي ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣ م ، ٢/ ٩٢٨ ، و يُنظر ، محمد ، سنيّة أحمد ، النقد عند اللغويين في القرن الثاني ، دار الرسالة للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٧م ، ١٤٨.

عليهما ولاسيما على صخر[٣٣] ، أي أنّها عاشت تجربة الفقد والحزن ، على نحو واقعي ، تحوّل إلى إبداع شعري معروف لها ، حتى عُدّت من أشهر شعراء الرثاء[٣٤] .

ويقيت كلمة العمود تعني المُرتكز والأساس لأي صناعة ، فاللغوي ثعلب (٢٩١هـ) ، بعد ذلك ، تحدّث عمّا سمّاه (عمود البلاغة) أي مرتكزها وأساسها ، في تناوله ما اصطلح عليه بالأبيات (المُرجّلة التي يكمل معنى كلّ بيت منها بتمامه ولا ينفصل الكلام منه ببعض يحسن الوقوف عليه ، غير قافيته ، فهو أبعدها من عمود البلاغة ، وأذمّها عند أهل الرواية . .) [٣٥]، وكان عمود الكتابة الصحيحة غير المُتكلّفة هو الطبع ، ممّا قاله أبو حيان التوحيدي (٤١٤هـ) ، في حديثه عن الصاحب بن عبّاد (٣٨٥هـ) الذي قال عنه إنه (فقد الطبع الذي هو العمود .) [٣٦].

إنّ هذه المُداخلة النقديّة ، أو المحاولة النقديّة التاريخيّة ، التي تحرّينا بها تاريخ استعمال تعبير عمود الشعر في التراث العربي ، تُنبّهنا على أنّ أكثر الدراسات التي أصّلت لظهور عمود الشعر ، وربّما كلّها ، قد أكتفت بما هو متواتر من أقوال ، وكنّا كذلك نستقي منهم ، فقد سبقونا ، ونردد ما

---

[٣٣] الأصفهاني ، سابق ، ١٥ / ٦١ – ٧٨ .

[٣٤] الجُمحي ، محمد بن سلّام ، ٢٣١هـ ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق ، محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، د.ت ، ١/ ٢٠٣ ، ٢١٠ .

[٣٥] ثعلب ، أحمد بن يحيى ، قواعد الشعر ، تحقيق و شرح ، الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م ، ٧٣ – ٧٤ .

[٣٦] التوحيدي ، أبو حيان ، الإمتاع و المؤانسة ، تحقيق ، أحمد أمين و أحمد الزين ، المكتبة العصرية ، بيروت – صيدا ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣ م ، ١/ ٦٤ .

قالوه ، مع ظنٍّ كان يراودنا كلما قلّبنا النظر في عبارة البُحتري التي نقلها عنه الآمدي وحده : أبو تمّام أغوص على المعاني منّي ، و أنا أقوم بعمود الشعر منه ، أنّه أورد عمود الشعر ممّا أدركه من أعراف زمانه وما كان يدور فيه من استعمالات فنية ، لعلّ عمود الشعر منها ، ولم ننتبه ، جميعا ، على مقـولة ابن عـمّ الشاعر مسلم بن الوليد لمسلم من أنه : فوق هذا الرجل في عمود الشعر ، كما مرّ بنا ، ولعلنا اليوم ، بعد هذا ، لا بد من أن نعيد النظر في تاريخ ظهور مصطلح عمود الشعر ، فلا يصحّ نسبته إلى الآمدي الذي أدّعى بعض الدارسين ، كما رأينا سابقا ، أنّه هو واضع هذا المصطلح وهو من جعل البُحتُري معبّرا عنه بطريقته في صناعة الشعر ، ورسم خصائص هذه الطريقة متطابقة لخصائص عمود الشعر[٣٧] ، ولا يعني هذا التقليل من أهمّية الآمدي في تطوّر نقد الشعر عند العرب وجهوده المهمّة في هذا على أننا أردنا القول أنّ كلّ هذا ما كان له أن يمرّ لو أنّا قرأنا أو انتبهنا على ما ذُكر هنا أو هناك ، لنضع تاريخ هذا المصطلح المُهمّ ، وغيره ، في سياقه التاريخي الصحيح ، فيسهل ، علينا رصدُ تطوّره ، و تتبع دلالته ، على نحو صائب .

---

[٣٧] الآمدي ، سابق ، ١/ ٤٢٣ .